بداية النهاية: رحلة العودة إلى طهران وبغداد .. ثم كشف الحساب!

أنيس منصور

لحن نتعجل نهاية الحرب على شط العرب والخليج الفارسى . فقد اعتدنا على الحروب القصيرة التى تحقق أهدافها فى ساعات وفى أيام .. ولأننا نريد أن نعرف المعنى .. أى الهدف من كل الذى حدث . . ومن الذى سوف يسقط أولا : آية الله الخومينى أو آية البعث صدام .

ومن حق الرئيس السادات أن يطمئن إلى حساباته السياسية . فهو أول زعيم فى العالم أشار إلى مأساوى يقع فى هذه المنطقة منذ عامين . فقد أعلن ان هناك « مخاضا » – أى ولادة عنيفة فى المنطقة . وأنه بسبب هذه الولادة سوف تتغير خريطة الشرق الأوسط . وسوف ينزل من فوق خيول السلطة كثيرون . وكان ذلك قبل ثورة إيران . وقبل أحداث مكة المكرمة . وبعد أن تورطت سوريا فى لبنان . وقبل التسلل الليبى فى تونس . وقبل أحداث تشاد ..

ثم عاد الرئيس السادات وأكد هذا المعنى بصورة عملية عندما أعلن استعداد مصر لأن تساعد الدول العربية جميعا – إذا طلبت ذلك . ثم موافقته على إعطاء الأمريكان تسهيلات عسكرية . دفاعا عن الخليج وعن أية دولة إسلامية ابتداء بالسعودية وانتهاء بأندونيسيا . .

وما حدث فى إيران وفى الخليج والحرب العراقية الإيرانية . ليس إلا بداية دموية لما سوف يجرى على الأرض العربية – من دماء عربية وأحداث قومية وصراعات دولية .. فليست هذه الحرب إلا « تسوية » تمهيدية عنيفة . وقد أدت الحرب العراقية الإيرانية إلى تمزيق الأمة العربية مرة أخرى .. ثم تمزيق التمزيق . . والخطوة التالية هى تفتيت العرب تماما . وبذلك سنجد أنفسنا أمام صورة أخرى للدول البلقان الصغيرة . ولأنها صغيرة وكثيرة . فسوف يكون من السهل على الدول الكبرى والعظمى إعادة اقتسامها والتسلل إليها . فكأن العرب قد عادوا بأنفسهم إلى ما كانوا عليه أيام الدولة العثمانية ! ..

ولسنا سعداء – نحن المصريين – بما حدث الآن . صحيح أن ماتوقعناه وقع . ولكن النتيجة موجعة للقلب . فقد ركب الزعماء رءوسهم أو ركبهم غيرهم . وخرجوا بشعوبهم عن حدود الأمان القومى وعن الصف العربى الذى كان يطالب بحل لقضية الشعب الفلسطينى . فانشغل الزعماء تماما عن الشعب الفلسطينى بالشعوب الأخرى . وبذلك اتجه القادة العرب إلى أنفسهم . وإلى

تثبيت مواقعهم من السلطة . وضاعت فى زحام المشاكل الوطنية والنزاعات القومية : قضية فلسطين . أو كادت . وإذا كان الشعب الفلسطينى ممزقا بين منظماته المختلفة . فإن هذه المنظمات قد توزعت عيونها وآذانها وألسنتها بين الدول العربية التى اكتفت على جراحها ونسيت قضية القضايا . وبذلك تكون الدول العربية قد وضعت القضية الفلسطينية فى الظل أو على الرف أو وراء ظهورها . فى داخل البلاد العربية كوارث أخرى : مذاهب دينية متعارضة . ونظريات سياسية متطرفة . ثم رغبة مجنونة فى الانتقام والثأر .

ومأحدث بين العراق وإيران هو صورة صارخة لكل هذه المعانى : النزاع الدينى . والصراع العرقى . وجنون السيادة . وسحب الشعب إلى قضية خارجية تشغله عن قضايا داخلية . وأخطر من ذلك كله أن هذه المعانى العنيفة قد جعلت الجميع يندفعون الى الحرب بغير حساب – أى بدون حسابات دقيقة لما يمكن أن يحدث بين دولتين متجاورتين . .

فهل لو تساءلنا عندما حذرنا الرئيس السادات من « الخاص » العربى : هل هناك إمكانية حرب بين العراق وإيران ؟ لكان الجواب : لا . . ولكن من الممكن أن تقع مناوشات . .

وإذا تساءلنا مرة أخرى : ولكن ماالذى يمنع قيام حرب بعد اختفاء الشاه سيد الخليج . والتاريخ السياسى قد علمنا أن السياسة كالطبيعة . وأنه فى الكباريه لابد أن نجد بنات الليل رجالا يحمين . يسمونه البلطجى . . والدول العظمى تقوم بهذا الدور عادة ؟ . .

فسوف يكون الجواب : ولكن إيران غنية والعراق أيضا . . وإيران شيعية وأغلبية العراق كذلك . . وإيران ليست فى حاجة إلى العراق . إنما فى حاجة إلى دول الخليج الصغيرة . والعراق قليل السكان . وبلاده واسعة وخيراته كثيرة . . وإذا كانت للرئيس صدام حسين تطلعات . فهى فى سوريا التى تتفق معه فى الفلسفة السياسية . . فسوريا هى البعث الرائد والعراق هو البعث القائد . . ومن الطبيعى أن يكون الرائد قائدا . أو القائد رائدا . . أى لابد أن يكون الرئيس الأسد حاكما للبلدين . أو صدام حسين . . وربما كان من أحلام صدام حسين أن يسود الخليج . فهو عربى وليس فارسيا . ودول الخليج قد بادرت إلى مبايعته سرا وعلنا . . فالكويت يعلم مطامع العراق منذ عبد الكريم قاسم . لولا أن تدخلت مصر . والسعودية قد تطاول عليها صدام حسين فى بغداد . وهدد الأمراء بأن « يغزوهم فى غرف نومهم » . . ولذلك سكتوا عن جار السوء . وسارعوا إلى الانفاق معه . دفعا لطمعه وشروره . . أما الأردن فقد أيد العراق . صيفا بسوريا وخوفا من منظمة التحرير الفلسطينية وإرضاء للسعودية . ويأسا من أمريكا ومغازلة للسوفيت وتهويشا لإسرائيل . .

وسؤال أخير : ولكن كيف تستبعد الحرب بين إيران والعراق . . وكلاهما يتضخم ويتعاظم من داخله . . فإيران تدعو إلى جمع شمل الشيعة فى كل مكان . والأغلبية فى العراق من الشيعة . . والإمام الخومينى أقام فى العراق وطرد منها ثم اخيل ولده . ثم اتفق الشاه والعراق على تسليمه إلى فرنسا . كما أن إيران تعطى السلاح للشيعة . وتعطيه للأكراد كما كان يفعل الشاه قبل ذلك – مع أن الأكراد من أهل السنة . والعراق يشجع العرب فى إيران على الانفصال ؟ !

أما الجواب الأمريكى السوفيتى على ذلك فهو : من الممكن ان تقع مناوشات أو اشتباكات . ولكن الحرب بعيدة الوقوع . . لأن الحرب كارثة تلد مصائب أخرى كثيرة . .

حتى الرئيس السادات كان من رأيه أنه سوف تقع منازعات بين الدولتين . واستبعد أن تقوم حرب دموية . . لأن الحرب فادحة الثمن إذا بدأت . وأفدح إذا استمرت .

ولابد بعد الحرب من الحساب : من الذى انتصر ومن الذى خسر ؟ وماهو ثمن النصر وماهى عقوبة الهزيمة ؟ . .

ولذلك . فبغير حساب . لايصح أن تنشب حرب . .

أما إذا كانت هناك أسئلة أخرى فمن الواجب أن تساق الآن بعد أن نشبت الحرب . واختلطت الاجتهادات . وتساوى المخلصون العسكريون والمخلصون النفسيون وقراء الصحف وقراء الكف . فنحن جميعا أمام ضباب وسحاب . ولانعرف لماذا قامت وكيف تستمر وماالنتيجة لكل من الطرفين بعد ذلك ؟ . .

إن هناك عبارة حكيمة لراندولف تشرشل فى أول صفحة من كتابه عن « حرب الأيام الستة » تقول : بدأت الحرب بأكذوبة سوفيتية ! وهذا صحيح ؟ فقد ادعى السوفيت أن هناك حشودا إسرائيلية على حدود سوريا . فاندفعت مصر لإنقاذ شقيقتها فى العروبة والإسلام . وكما بدأت الحرب بأكذوبة انتهت بأكذوبة ايضاً . فقد انتهت الحرب بهزيمة ساحقة . هذه « الهزيمة » اسميناها « نكسة » تخفيفا لوقعها علينا وتهويناً من النصر الاسرائيلى ! . .

وهذه الحرب بين العراق وإيران قد بدأت بأكذوبة أيضا . فقد صدق العراق أن إيران بعد الشاه قد انهارت تماما . وأن نصف شعبها فى الشوارع والنصف الثانى يهتف للقصور والمتاجر والمصانع . وقليل منهم يكون عند آيات الله الخومينى وخلفائى وبهتى يطلقون إليهم الخلاص من لعنة الشاه وأسرته المالكة والأمريكان وأهل السنة فى كل البلاد الإسلامية . .

ويقال إن الروس أيضا هم الذين نقلوا إلى الرئيس صدام حسين أن هذه هى الفرصة . وليس عليه إلا أن يضرب ضربته فيستولى على شط العرب . وبعد ذلك على العرب فى الخليج الفارسى وخليج السويس أيضا . وبذلك يكون السيد الهيب فى مؤتمر القمة فى عمان . وفى مؤتمر دول عدم الانحياز فى بغداد . . وكما أن صلاح الدين الأيوبى من قرية تكريت فالرئيس صدام حسين ومن قبله الرئيس البكر قد ولدا فى قرية تكريت أيضا . .

ولم تهتم إيران فى شكلها الجديد . بغزو العراق عسكريا . إنما بغزوها دينيا . . فالشيعة فى العراق يتطلعون إلى إيران ويعلقون صورة الإمام الخومينى على المساجد فى النجف وكربلاء والكوفة والبصرة . كما أن تسجيلات الإمام الخومينى فى كل بيت . . واستبعدت إيران أن يحارب الشيعة العراقيون وهم الأغلبية فى الجيش . أشقاءهم الشيعة فى إيران . .

وبدأت الصحف العراقية تتحدث عن شط العرب الذى ليس عربيا تماما . وأنه لابد أن يكون كذلك . . وعن الجزر التى قفز عليها الشاه ولابد من إعادتها إلى دولة الإمارات . ؟ولكن كيف ؟ . .

لم يخطر على بال أحد أن الحرب هى الوسيلة . إنما كان من المتوقع أن يكون التهديد بالحرب ، أى فقط بالخطب والمظاهرات والأناشيد الوطنية – وهى تتفق مع أعمق التقاليد العربية فى مواجهة المشاكل . وقد أحصى أحد المستشرقين عدد القصائد التى نظمها العرب منذ سنة ١٩٤٨ حتى اليوم فبلغت ١٤ ألف قصيدة تطالب العرب بحل القضية الفلسطينية والقاء اليهود . فى كل مكان . فى البحر !

ثم نشبت حرب الثلاثين يوما ..

فكانت هذه هي الغلطة الأولى .. وقد تأكد العالم كله أن الحرب بدأت بغلطة عراقية . لأن استمرار القتال دون تحقيق هدف . أكبر دليل على ذلك .

وكانت الغلطة الثانية عندما أعلن العراق أنه يريد تحرير أرضه التي اغتصبتها إيران .

ولم تكن إيران قد اغتصبت أرضا . إنما احتلتها تمشيا مع اتفاقية الجزائر . ولكي تكف إيران عن مساعدة الانفصاليين الأكراد . فاعتدت العراق على الأرض الإيرانية . فكانت هذه الحرب دافعا قويا لتوحيد الشعب الإيراني الممزق . ولم يكن صعبا على الإمام الخميني أن يدعو للجهاد المقدس ضد العراة العراقيين . وانتظر العسكريون يرون ماالذي سوف تفعله الدولة التي اختارت أن تكون البادئة بالقتال . فوجدوا أن العراق لم تطبق مبدأ واحدا من مبادىء العسكرية – أي أنها تجهل مبادىء القتال . رغم الأسلحة السوفيتية المتطورة ..

وعلى الجانب الإيراني كانت المقاومة عنيفة . والدليل البسيط على ذلك أنه منذ شهر أعلن العراق أنه استولى على مدينة خورامشهر . وهي مدينة صغيرة . ولكنه لم يستطع حتى الآن . إذن فهناك مقاومة إيرانية عنيفة عسكرية وشعبية . فالشعب الإيراني ليس ممزقا لدرجة تجعله عاجزا عن الصد والرد . وأغرب من ذلك أن سلاح الطيران الإيراني بطائراته الأمريكية المتطورة قد أصاب الأهداف الحيوية في العراق . فضرب محطات ضخ البترول في جنوب العراق وشماله . وأصاب المحطة الفرنسية لتوليد الطاقة النووية بالقرب من بغداد . وفوجيء أهل بغداد بأن صفارات الإنذار تنطلق باستمرار .. دون تمييز بين صفارة الغارة الجوية . وصفارة زوالها .. فالدولة التي بدأت الحرب . لم تستعد بدرجة كافية لمواجهة هذا الاحتمال الضروري للحياة اليومية . ولكن صحف العراق تقول : إذا كانت إيران قد أخذت أرضنا . فسوف نأخذ أرواحها !.

والصحف الإيرانية تقول : طبيعي أن يفضل الشعب العراق أن يموت في إيران على أن يعيش في العراق !.

ويقال في تفسير ماحدث في إيران من أداء عسكري ممتاز . إن الجيش الإيراني مايزال سليما . وإن الطيران أفضل رغم نقص قطع الغيار ونقص الوقود .. ويقال : إن الشاه كان قد وضع خطة جاهزة . وإن الإدارة الإيرانية الجديدة قد أخرجتها بسرعة . ويقال : إنهم اخرجوا الضباط من السجون وأعادوهم إلى الجيش .. ويقال : إن عددا من الطيارين من إيران قد عادوا إليها دفاعا عن الوطن ضد العراة

وقد أدت هذه الوحدة الوطنية إلى إطالة عمر الإمام الخميني .. وإلى شيء أخطر من ذلك .. هو : أن الجيش الإيراني قد جربته الأحداث . فأثبت قدرته على الوقوف وراء الخميني . لكي يقف في وجهه بعد ذلك !.

معنى واحد من الممكن أن يكون أقرب التفسيرات إلى العقل وهو : الجيش العراقي القوي المسلح بأحدث مافي المصانع السوفيتية لم يستطع أن يتغلب على جيش إيران المفككة . إذن فالعراق القوي الموحد أضعف من إيران الممزقة !.

فكيف يواجه العراق دول الخليج ؟..

لقد حارب ولم ينتصر . لقد هدد دول الخليج وأخافها فارتضوه – مقدما – سيدا للخليج . فأعاد إليهم سيادة إيران . وكان عرب الخليج يرتجفون من إيران يوم كان على رأسها شاه واحد .. واليوم على رأس إيران ألف شاه بعمامة سوداء !..

وإذا كانت إيران في حاجة إلى تأكيد قدرتها اليوم وسيادتها غدا . فقد سارع العراق وأعطاها هذه الفرصة !..

ولسنا في حاجة إلى أن نلتفت يمين مصر وشمالها وجنوبها ونسأل : أين العرب ؟ أين القيادة ؟ أين الزعامة ؟ أين الوحدة المتماسكة التي تستطيع أن تحقق للشعب الفلسطيني آماله ؟.. من المؤكد أن هذا التفكك العربي قد أيقظ قوميات أخرى تريد أن يكون لها « وطن قومي » مثل الشعب الفلسطيني أيضا .

لقد خلقنا أكثر من « فلسطين غير عربية » وأكثر من « إسرائيل غير يهودية » ؟!

وبذلك تظل مصر وحدها هي التي تواجه إسرائيل كأن القضية الفلسطينية قضية مصرية . وليست قضية عربية – نحن نؤمن بذلك . وهم يزايدون على ذلك .

وفي نفس الوقت يتأكد أن مصر هي الدولة الوحيدة القادرة على تحقيق الوحدة والتضامن والحرب والسلام . وإذا كان هذا المعنى ادعاء مصريا قديما . فمن الواضح أنه أصبح حقيقة جديدة لاشك فيها .

❑❑❑

ولن تؤدي هذه الحرب إلى نصر أو هزيمة . فلم تحصل الدولة التي بدأت الحرب على هدف من الأهداف التي أعلنتها .. ولن تحصل إيران أيضا على أرض عراقية . وسوف تسترد الأرض التي حررها العراق . فلاأحد قد انتصر . ولاأحد قد انهزم . وإن كان من المؤكد أن العراق لم ينتصر ..

ولكن من حق إيران أن تقول إنها ردت العدوان . وإن ذلك انتصار لشعبها وهزيمة لزعامة العراق

❑❑❑

هذا فعله الإمام الخميني بفلسفته الدينية . وطرده للشاه . واحتجازه للرهائن . أعلى زعائم في التاريخ ؟ – فقد جمدت الولايات المتحدة مائة ألف

مليون دولار فى بنوكها فى كل العالم . وعرف الشعب الإيرانى البطالة والجوع وفقدان الطاقة . ولم يجد الجيش الإيرانى قطع الغيار لمواصلة الحرب . كما أن الشعب الإيرانى قد مات مشنوقا وحرقا وجائعا ومريضا بعشرات الألوف .

وظهر الإسلام الإيرانى دينا لايعرف الرحمة ولاالسلام ولاالإسلام أيضا .

وكان الناس فى أول ثورة الخومينى يحفظون عطفه الذى حلت من العبارات الخطابية البليغة أو الاجتهادات الدينية الذكية . أما اليوم فهم لايجدون معها الرغيف والزيد والأرز والدفء والأمان ..

وقد جاء فى أول كتاب أصدره الإمام بعد أن جلس على عرش الشاه وخلع التاج ووضع العمامة : أنه يرعى الله وأن مثله الأعلى فى معاملة الناس ماكان يفعله الإمام زين العابدين . الذى جاءته جارية تحمل ابريقا وتسكب له الماء لكى يتوضأ . فسقط الأبريق على رأسه فأسال دمه . فنظر إليها فقالت : والكاظمين الغيظ .

قال : كظمت غيظى

قالت : والعافين عن الناس .

قال : عفوت عنك

قالت : والله يحب المحسنين .

قال : أنت حرة لوجه الله !

ولايعتقد أحد الآن أن الإمام الخومينى يستطيع أن يواجه ضحاياه ويردد هذه الآية الكريمة : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » !

أما الرئيس صدام حسين فقد جلس وراءه زعيم عربى عندما كان يستعرض قواته العسكرية . فقال : أحب هذا الشاب الذى وجد البطل .

أى الذى وجد فى الرئيس صدام البطل المنشود .

ثم عاد يقول : ولكن هذا الشاب لا تنقصه إلا أكاليل الغار ..

أى إلا الحرب والانتصار فيها !..

ولابد أن تشغل طهران وبغداد الآن بقضية منطقية : هذه القوات سوف تعود . فرحلة العودة تبدأ اليوم أو غدا .

فإذا عادت القوات فماذا يقال لها وللشعب ؟

وكم من الوقت تمضى فى إقناع الناس ؟ وكم من الوقت فى بناء البيوت وخطات توليد القوى ومعامل التكرير . ثم بناء السلام الداخلى والخارجى ؟ .

يقول لنا الكاتب الفرنسى الكسندر ديماس إنه رأى نابليون خارجا منهزما من فرنسا إلى جزيرة ألبا .. ورآه عائدا منها إلى باريس .. كان يركب عربة وكان حافى الرأس . ثم عاد إلى باريس على حصانه وحده ..

يقول ديماس لقد توقفت عيناى على التراب وراء عربته ووراء حصانه .. عندما خرج من فرنسا كان التراب يتعلق بالعربة وبالبطل . كأنه لايريد أن يتركه ولايريده أن يترك تراب فرنسا .. وعندما عاد إلى باريس وجدت التراب ينتار بعيدا عن أقدام حصانه .. كان التراب أبعد نظرا يعرف ما سوف يحدث للامبراطور نابليون . ولكن نابليون لم ير التراب فى المرتين .. ولم يرد فى المرة الثانية .. لعاد . ولكنه رجل لم يعرف إلا النصر !..

وعاد نابليون وعاد قواد عسكريون مهزومون . وسوف يعودون لتحطيم شعوبهم .

وقد جاءت ساعة الحساب فى طهران وبغداد . وسوف يكون الحساب امتدادا لتسعينات . ومناسبة تاريخية لتغيير خريطة الشرق الأوسط عندما توافق الانقلابات العسكرية فى طهران وفى بغداد . وفى بلاد أخرى ..

وسوف تتحرك الدول العظمى مافانها .. وقد شرعت تفعل ذلك . ولكن بحرص شديد .

فالولايات المتحدة تقف وراء إيران . حتى لايلتهمها الشيوعيون من الداخل . فتدخل فى الفلك السوفيتى — رغم الأسلحة الأمريكية ورغم الرهائن ورغم العداء الدموى الشديد . ولكن السياسة لها مبادىء أخرى . غير مبادىء الدين والأخلاق . إنها مبادىء التجارة والبورصة وسوق العرض والطلب وهات وخذ ..

والاتحاد السوفيتى يقف وراء العراق . رغم إعدام الشيوعيين وصبح شوارع بغداد بأجسادهم .

والذى ينظر الآن إلى خريطة الشرق الأوسط يجد أن مناطق النفوذ قد أعيد توزيعها . وأننا مرة أخرى أمام تفكك الدولة العثمانية إلى دويلات صغيرة تطالب باستقلالها من جديد . وأن الدول العظمى فى ذلك الوقت راحت تكافىء هذه الدول على وقوفها معها ضد الدولة العثمانية . وقد اقتسمت بريطانيا وفرنسا الشرق الأوسط .. وذهبت بريطانيا فى تدخلها وتورطها مع العرب واليهود إلى أن وعدت بوطن قومى لليهود « فى فلسطين » سنة ١٩١٧ .

وفى ذلك الوقت أعلن الاتحاد السوفيتى أن بريطانيا وفرنسا قد ارتبطتا بمعاهدات سرية مع كل دول المنطقة . وقد أدى ذلك إلى أن أعلنت بريطانيا أنها سوف تعطى للدول العربية استقلالها .. وفى يوليو سنة ١٩١٨ استنكر الرئيس الأمريكى ويلسون هذه المعاهدات السرية . وأعلن أن أمريكا تؤيد حق هذه الدول جميعا فى الأمن والأمان وتقرير مصيرها .

ومنذ ذلك الوقت اعتقد العرب أن أمريكا سوف تضمن لهم الاستقلال الذى ظلوا يحلمون به أربعة قرون !.

والرئيس الأمريكى ويلسون هو صاحب عبارة « إن الحروب الصغيرة تنتهى بسلام بغير نصر » !.

وكان التاريخ يعيد نفسه لأنى سلاما بغير نصر بين العراق وإيران . ولأنى قومبات كثيرة تطالب بحق تقرير المصير .. وتأييدا دوليا للدالك .. وتزى الدعوة إلى وحدة الأقراب الوطنى .. وبعد ذلك إلى الوحدة العربية والتضامن العربى !!

ولأنى اعلاما جديدة عربية تناوى أمة العرب بالتفاف جوبها حول الأمريكان .. الخ

وعلى فلسطين السلام ورحمة الله وبركاته !.

ولكن الدماء لن تجف ولا الدموع . قبل أن تراق دموع جديدة ودماء زكية .. عندما تجىء ساعة الحساب فيجد الناس جوابا مقنعا .. وإن لم يكن جوبا .. عن هذا السؤال : ومن الذى أشعل الحروب ؟ .. ولماذا ؟

□